نصوص مختارة لميّ زيادة

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

ميكلانجلو[١]

يوم الأربعاء ٦ مارس:

أنزعُ هذا الصباح ورقةً من يوميّتي كالمعتاد، فأجد تاريخًا واسم مكان واسم رجل، يا له من رجل عظيم، ميكلانجلو بوتاروتي. وُلد في ٦ مارس عام ١٤٧٥ في كابريزي من أعمال إيطاليا. يُخيّل إليَّ أنّ المسافة تُطوى، وأنّ الأزمنة تتجمّع وتتلازب حتّى تصبح صورة رجل أَتْقَنَ أربعةً من الفنون الكبرى[٢]، فشعشع نبوغة في مُتلاحَق الأجيال. ولكأنّي الآن أراه أمام مكتبه يقرض الشعر عاشقًا، وينقش الرسوم مبدعًا، ويمسّ الحجر الصَّلْدَ فَيَلِيْن الحجر طائعًا، ويلمس المرمر الجامد فيتحرّك المرمر قابضًا بحياةٍ من روح الفنّان الساحرة.

لم يظهر حتّى اليوم إلّا ثلاث مدارس[٣] كبرى للفنّ، هي مدارس أثينا وفلورنسا والبندقيّة. فمدرسة أثينا كانت غايتها إظهار جمال الجسد الإنسانيّ، فأتت بأعظم التماثيل، وكان إتقانها المتناهي أسَّ عظمتها الفنّيّة. أمّا المدرسة الفلورنتينيّة فكانت غايتها التعبير عن الانفعال النفسيّ في حركات الجسد، ووضع الأعضاء، ومعاني الملامح، وكيفيّة الجلوس والوقوف. وقد تفَوَّقت في إدراك غايتها تفوقًا باهرًا. وأمّا مدرسة البندقيّة فكانت غايتها إتقان فعل الألوان والأظلال على جميع الأشياء لاسيّما على الجسد البشريّ. فجاءت أعمالها آيات للمبدعين.

يبتدىء تاريخ الفنّ الحديث بسقوط عبادة الأوثان. منذ عهد كومودس[٤] وديوكليسيانس[٥] تغيّر فنّ النحت تغيّرًا تامًّا. فبعد أن كان متمتعًا بالإتقان في المدنيّة الإغريقيّة اللاتينيّة أمسى ضئيلًا، حائرًا، كلّه عيوب ونقائص. فتماثيل القياصرة في ذلك العهد تدلّ على ارتباك في يد الفنّان، وانحطاط في أساليب الفنّ. في مثل ذلك وصل الفنّ إلى طوره البيزنطيّ. والفنّ البيزنطيّ مزيجٌ من الفنّ الإغريقيّ اللاتينيّ تتغلّب عليه خصائص شرقيّة. وقد اتّسَم بطابعه الخاصّ في القرن السادس بعد الميلاد، وأظهر آثاره معبد آجيا صوفيا المشاد في

---

[١] نُشِرَت في "الهلال" عدد نيسان (إبريل) ١٩١٨.

[٢] الفنون الكبرى خمسة وهي: الشعر، والنحت، والرسم، وهندسة البناء، والموسيقى. وقد أَتْقَنَ منها ميكلانجلو الأربعة الأولى.

[٣] المدرسة (école) هي الرأي الشائع في طائفة معيّنة من العلماء أو الفلاسفة أو الفنّانين أو الشعراء أو اللغويّين، حتّى إنّ الفرنجة عند كتابتهم عن العرب يعبّرون، مثلًا، عن مذهب البصريّين والكوفيّين في النحو بالمدرسة البصريّة والكوفيّة.

[٤] قيصر رومانيّ ملك من سنة ١٨٠ إلى سنة ١٩٢ بعد الميلاد، وهو ابن ماركس أوريليوس، اشتهر بجوره وصرامته، وقد مات تسممًّا وخنقًا في آن واحد.

[٥] قيصر رومانيّ ملك من عام ٢٨٤ إلى عام ٣٠٥ وقد اضّطهد المسيحيّين اضطهادًا شديدًا حتّى دُعِيَ عصره "عصر الشهداء". إلّا أنّه ملّ أتعاب المُلك في شيخوخته، فتنازل عن العرش وعاش عيشة الخلاء البسيطة.

القسطنطينيّة من ٥٣٢ إلى ٥٣٨. ومن مميّزاته الخطوط المقوّسة، والقبب الواسعة، والزخرف بالحجارة الملوّنة المحلّاة بالذهب، وتخريم الأفاريز الدقيقة الصنعة. وقد انتشر الفنّ البيزنطيّ في القرون الوسطى انتشارًا كبيرًا خصوصًا في الشرق.

تعدّدت يومئذٍ صور العذراء، وتماثيل المسيح، وجميعها هزيلة الهيئة كأنّ النوع الإنسانيّ عليلٌ يشكو فقرًا في الدم، وضعفًا في القلب. بيد أنّ الفنّ أخذ بالتحسّن قليلًا قليلًا بدنوّه من الانبعاث[1]، كأنّ الصحّة عادت إليه بالتدريج. فظل مستشفيًا مدّة قرن تقريبًا. فلمّا انتشر نور الانبعاث في العلوم والفنون، عاد الفنّانون إلى استيحاء آيات المدنيّة القديمة، ونسخَ جمال التماثيل الإغريقيّة واللاتينيّة، وكأنّ إلاهات الميثلوجية رجعت من منفاها المجهول فوجدت في إيطاليا خير موطن، وأطيب مُستَقَرّ.

تتغيّر أنواع العبقريّة بتنوّع حاجات العصور. ففي عصرٍ تنمو عاطفة الكمال الأخلاقيّ، وفي آخر تروج النظريّات الفلسفيّة أو الاكتشافات العلميّة. وآنًا يُقَدَّرُ إتقان الرسم والنحت، وآونة يُؤْثَر قرض الشعر وتنميق الإنشاء. وقد يستأثر ويتفرّدُ يومًا فنّ إيقاد الحروب وتدريب الجيوش. إلى غير ذلك من ضروب المقدرة البشريّة. أمّا في قرن الانبعاث، الذي خلف ظلام القرون الوسطى، فقد تسابقت جميع القوى في ميدانٍ مترامي الأطراف لا يرى له المتأمّل حدودًا. فتبادرت فيه جهود الفكر والعلم والعمل جميعًا. تجدّد يومئذ درس القوانين والشرائع؛ وعاد رونق المذاهب الفلسفيّة على تعدّدها، وتوافرت الاكتشافات العلميّة، وانفتح باب النقد بعد الإصلاح اللوثريّ، (Réformation) فكانت أوسع موجة من تلك الحركة الكبرى في عالم الفنّ بإيطاليا، وطن الانبعاث الأوّل.

ولقد كثرت حملات القوط في القرون الوسطى على جميع أنحاء أوربّا، ولم تسلم إيطاليا من شرّهم، بل قاست من بطشهم مُرّ النِّكال. وكان القوم، إذا اجتاحوا مملكة، أنزلوا فيها عاداتهم، وبثّوا في أرجائها لغتهم وفنونهم، شأن الغزاة في كلّ زمانٍ ومكان. فانتشرت الهندسة القوطيّة في أوربّا إلّا أنّها لم تدخل إيطاليا إلّا بعد جهد جهيد. ولم تؤخذ هنالك على علّاتها، بل اقتُبس منها مظاهرها ليس غير. وإذا وُجد كنيستان فيهما من الطراز القوطيّ البحت، فهما عمل مهندسِين غير إيطاليّين. ذلك لأنّ الفكر الإيطاليّ مدرسيٌّ (classique) مطبوعٌ على تقدير آثار قدماء الإغريق وقدماء الرومان، ويرى ذاته خليفتهم في السَّير في طليعة الشعوب. لذلك كانت إيطاليا، في القرن الخامس عشر، أوفر ثروة وعلمًا وأدبًا من الممالك الأوربيّة الأخرى. وما اشتعلت فيها شرارة الانبعاث حتّى تيقظَّت الأفكار، وكثر عدد النوابغ الذين أحيت عبقريّتهم دولة العلم والفنّ والآداب.

عندئذٍ أصبح الجسد جميلًا تحت يد الفنّانين، تتخلّله الأناقة والرقّة. هذا في البندقيّة. أمّا في فلورنسا فنجد تلك المدرسة الزاهرة (وزعيمها ميكلانجلو) التي تَعدُّ بين أتباعها الكثيرين أسماء شهيرة كليوناردو دافينشي، ورافائيلي، ودوناتلُّو، وأندريا دل سارتو، والأخ باربولوميو، وغيرهم من الذين أوجدوا في بابهم أجمل شكل يتحدّاه الفنّ الحديث. ففي تلك الأعضاء القوّية من تماثيلهم ورسومهم، وفي تلك العضلات البارزة والأجساد الكبيرة، والصحّة النضرة، لا نرى شيئًا من التعب والكدّ والانحلال البادي في الآثار الفنّيّة السابقة. بل إنّ الرأس منها، والوجه، وجميع الأعضاء، تدلّ عند رافائيلي على اللطف والعذوبة وطمأنينة النفس. وتَرسم عند ليوناردو دا فينشي سموّ الأخلاق ودقّة الفكر، وحدّة الذكاء. وتمثِّل عند ميكلانجلو القدرة والعزم على أبدع منوال، وترسم الشجاعة وقوّة الإرادة وعلوّ الهمّة. ولكأنّك أمام تماثيل هذا الجبّار تستحضر وجوه الأبطال من البشر المتقدّمين، يوم كانوا يهبطون من أعالي الجبال فيقضون على أعدائهم بلطمةٍ، ويخنقون الأسود دعابةً في أحضانهم. فإذا كانت أثينا الوطن الأوّل للجمال، وكانت شجرة الفنّ قد خَيَّمت للمرّة

[1] الإحياء أو الانبعاث، هو الحركة الفنّيّة والأدبيّة والعلميّة الكبرى التي وُجدت في أوربّا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وكانت قائمة من وجوه كثيرة على نسخ المدنيّات القديمة.

الأولى تحت سمائها الصافية، كما قال هيبوليت تاين، فإنّ أَمتَنَ دوحةٍ من تلك الشجرة امتدّت الى فلورنسا وأَوْرَقَتْ فيها، وكان ميكلانجلو أكبر وأبدع زهرة على أفنانها.

عاش ميكلانجلو قرنًا تقريبًا. وبدأ ولوعه بالرسم منذ حداثته، فدخل يتعلّم عند رسّامٍ يُدعى جيرلنداجو. ولمّا أنشأ لورانزو دي مديتشي[1] مدرسة للنحت في قصره، سأل جيرلنداجو أن يبعث إليه ببعض تلاميذه، فأرسل ثلاثة ومنهم المدعوّ ميكلانجلو. دخل ميكلانجلو حدائق سان ماركو، وهو الفتى المختار، لإيجاد نزعةٍ جديدة في الفنّ الحديث، فأخذهُ الإعجاب إزاء التماثيل الإغريقيّة التي جمعها هنالك آل مديتشي، وصمَّم على ممارسة النحت. بدأ بنسخ أحد التماثيل القائمة في الحديقة، فكان نجاحه تامًّا. فسُرَّ بذلك لورانزو، فدعاه إلى مائدته، وعيَّن له راتبًا شهريًّا. ولكن لم يلبث أن قضى لورانزو. فعاد الفنّان إلى منزل والده يعمل لنفسه، وشهرته تتّسع مع زيادة إتقانه لفنِّه. ثمّ استقدمه البابا يوليوس الثاني إلى روما لتشييد مدفَنه: إلّا أنّهما اختلفا بعد أن شرع ميكلانجلو يكيّف المرمر لتماثيل المدفن. فمضى إلى فلورنسا حيث لقيَ من يدعوه إلى القسطنطينية ليقيم بينها وبين بيزا جسرًا عظيمًا. غير انّه عاد واتّفق مع البابا سنة ١٥٠٥، فتابع العمل في شخوص ذلك المدفن الذي لم يتمّ إلّا سنة ١٥٤٥.

ولما تَوفيَّ يوليوس الثاني، عهدَ خلفه ليون العاشر إلى ميكلانجلو بإتمامِ كنيسة آل مديتشي في فلورنسا، وحفرِ مدافنهم الشهيرة. وقد أكثر الفنَّان خلال هذه المشروعات العموميّة من التماثيل والرسوم الخصوصيّة وكلّها من فاخر الأعمال الفنّيّة.

كان ميكلانجلو قويَّ البنية، عصبيّ المزاج، يأكل قليلًا، وينام قليلًا، ويعيش عيشة الفقراء، على ما لديه من واسع الثروة. كان يسيء الظنَّ في كلّ شيء لشدّة ما لقيَ من آلامٍ أوجدها له الحاسدون. أحبّ العزلة، مرتع المفكّرين والمتأمّلين، حبًّا جمًّا، فعلّمته الهدوء والسكينة، وأنالتهُ القوّة، ووهبته إدراك جمال الفنّ وقداسة العمل. ولم يستوقف نظره وقلبه، طوال حياته، إلّا إمرأة واحدة أحبّته حتّى الموت، وهي فيتوريا كولونّا، مركيزة بسكاري.

لمّا اجتمعا للمرّة الأولى في روما، كانت المركيزة أرملةً في الخامسة والثلاثين من سنيها، وكان هو في الستّين من عمره، فتبادلا حبًّا طاهرًا ألقى على حياة كلٍّ منهما رونقًا لا يكون مصدره إلّا لذّة العاطفة. وكانت تلك النفس الوحيدة التي سكب فيها قلبه الكبير. فتراسلا نثرًا ونظمًا لأنّها كانت عالمة شاعرة مثله. وبقيت صداقتهما نامية حتّى وافى فيتوريا الحِمام، فكان موتها أوجعَ أحزانه وأكبرَها. لكنّه لم ينسَها طوال حياته وظلّت حيّة في قصائده وفي مجموعة رسائله.

والآن ما ذُكرَ ميكلانجلو إلّا ذُكرَتْ معهُ فيتوريا كولونّا التي رسم العاشق وجهها بيدٍ يقودها الوجدُ. وتيسَّرت المقابلة بين ميكلانجلو وبين دانتي الشاعر العاشق بياتريتشي، لأنّ الرجلين كانا مدركين لكلِّ ما في الحياة من الفواجع، ولكلّ ما في العالم من الأسرار. لكنْ بينا دانتي يهبط إلى نفسه أمام جور الأشياء، وينسى ثقل المادّة باغتساله في موجات الروح، فإنّ ميكلانجلو يظلُّ معذّبًا بحنينه إلى جمال الصور، فلم يرتوِّ عطشه هذا طوال حياته. أوّل الرجلين منتصر قاهر، وثانيهما مجاهد متألّم. ميكلانجلو شاعرٌ يقاسي أوجاع النفس الممزّقة بين تنازع المبادئ وتناقض الميول. فلا نسمع في صوته رنين الظفر، بل هو هامسٌ أبدًا بغصَّة الكُروب وثِقلِ الهموم. وإذا لطفت لهجته كثيرًا كان مبتهلًا مستغيثًا. كأنّما هو إرادة في حالة التكوّن، تريد أن تكون قويّة ثابتة، لكنّها لا تكون إلّا قلقةً مجاهدة. ولا تفوز إلّا بتراكم تردّدها وشكوكها على الإدراك البشريّ. وربمّا كان ذلك ينبوع عبقريّة ميكلانجلو العظيم، رجلًا وفنّانًا جميعًا. هو عظيم دوامًا

[1] Médici اسم أسرة شهيرة ملَكت في فرنسا، ولورانزو هذا أحد أعضائها الحاكمين، وقد لُقّبَ (Il Magnihco) لأنّه كان كريمًا منشّطًا الفنون والآداب.

سواء حفَر التماثيل، أو نقش الأفاريز، أو شاد قبّة سان بيترو في روما، أو نصب مدافن الباباوات والملوك، أو توجَّعَ مِن حسدِ منافسيه برامانتي ورفائيلي، أو نظم حُبَّه شعرًا لفيتوريا كولونّا. ليس الحبّ عند ميكلانجلو اغتباطًا وراحة، بل هو انفعال وعذاب. وما الألم إلّا تشنّجًا، وما النفور إلّا كرهًا وبُغضًا. وهو لم يقف في شيء، لا سيّما في نبوغه، عند حدّ الاعتدال. لذلك كان، وسيظلّ على كرّ الدهور، واحدًا من كبار مصارعي القلب والفكر البشريَّين.

مَيّ زيادة،

الصحائف، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسَّسة نوفل، ١٩٨٠، ص ٤٠–٤٨.

###

تطوُّر اللغة العربيّة

نصّ المحاضرة البليغة التي أُلقِيَتْ في ردهة المحاضرات بجامعة القاهرة الأميركيّة في أوائل الصيف

أيّها السادة والسيّدات

لكلٍّ من الموضوعات جوٌّ أدبيٌّ يخيّمُ على المحاضرِين، ويحولُ لوقتٍ بينهم وبين الخارج. أمّا موضوعنا الليلة فعلى نقيض ذلك. إذ يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ جدران هذه القاعة الفسيحة تتوارى بغتةً لترتدَّ إلى ما وراء القاهرة وتخوم القطر المصريّ، إلى ما وراء البحار والقفار وسلاسل الجبال النائية، لتشمل كلّ بلد يتكلّم أهله اللغة العربيّة، بل يشمل كلّ قبيلةٍ يتكلّم أهلها ولو لهجة مجهولة مشوَّشة من اللغة العربيّة.

ويخَيَّلُ إليَّ أنّ الزمان يتّسع باتّساع المكان، فيرجع بنا إلى يومٍ بعيدٍ فيه كانت العربيّة نشيدًا وجدانيًّا على لسان سائقي الأظعان، وروّادِ الصحراء، وكانت أبجديّةً فلكيّة على لسان رعاةٍ يَرصدون دورة الفلكِ، ويرقبون غروبَ قُميرٍ، وشروقَ كوكبٍ، ليستأنفوا السير إلى حيث ضربَ الأحبابُ خيامَهم، وأشعلوا نارَ القِرى.

ويخطو بنا الزمنُ في تَعَجُّلٍ، متجاوزًا مختلف العهود، حتّى يقف لحظة عند عهد الجاهليّة الأقرب، أيّام كانت تُنْظَمُ المعلَّقات لتُنْشَدَ في سوق عكاظ، ومن حولها بلادُ العرب تجيش بالحركات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في جميع الأنحاء. ومن ثمَّ فنحنُ في أوائل القرن السادس للميلاد. وبينا الرومان واليونان، سادة الحضارة والثقافة في هاتيك الأزمان، يجاهدون للاحتفاظ بالبقيّة الباقية من مدنيّتهم المتناثرة– إذا بقومٍ مجهولين من قَبل ينهضون في شبه الجزيرة نهضة الأسود فيقتحمون البلدان، ويفتحون الممالك والأمصار، ويفاجئون العالم بصورة جديدة من الحيويّة الإنسانيّة، ويقيمون دولة عربيّة، وينشرون في العالمِين رسالة جديدة باللغة العربيّة.

وتتوالى القرون وأولئك القوم يوسّعون ملكهم، ويوطّدون مجدهم، مستمدّين الوحي والفائدة من كلّ ما يوحي ويفيدُ، معالجِين فنون الصناعة والتجارة والثقافة، ناقِلين كتب الصناعة والأدب والفنّ والتاريخ والسفر وركوب الأخطار وسائل لتحقيقها. سخّروا قوى الطبيعة لخدمتهم، وطوّقوا الكرة الأرضيّة بأسلاك الحديد، وأنفاس البخار، وموجات الكهرباء والنور والأثير، وكشفوا عن مكنون الأسرار في الكيمياء والطبّ والجراحة والهندسة والعلوم الرياضيّة والطبيعيّة والنفسيّة، وابتكروا المُدْهِش الساحر من الأدوات الميكانيكيّة والآلات ووسائل النقل وأساليب المعيشة. وكان التجديدُ في اللغةِ يساير الابتكار العلميّ والميكانيكيّ والفنّيّ والاجتماعيّ والأدبيّ خطوة خطوة. فلكلّ حركةٍ لفظةٌ، ولكلّ آلةٍ أو جزءٍ من آلةٍ اسمٌ، ولكلّ سرٍّ يجلوه، ولكلّ فكرةٍ وعاطفةٍ وتأثير، مفرداتٌ وكلمات وتعبيرات تقوم بشرحه وتبيانِه.

واستيقظت الشعوب المتكلِّمة بالعربيّة– ولم تكن يقظتها وهميّة خياليّة، بل كانت والحمد لله حقيقة محسوسة– فأدركت تلك الشعوب أنّ بينا قافلتها كانت موغِلةً في الرقاد، كانت قوافلُ الشعوب الأخرى تُوغِل في المسير. ولم يَطلْ حتّى اقتبس المتكلِّمون بالعربيّة ثقافةَ الأمم الحيّة، واصطنعوا أدواتها وعلومها وأساليبها الحيويّة، وتشبَّعت نفوسهم بجديد المعاني والنزاعات والمطامح بعدما أسبغتْهُ الحضارة عليهم من الوحي العلميّ والاجتماعيّ الجديد. وعندما أرادوا أنْ يعبّروا عن حاجاتهم الجديدة، وأنْ يُسَمُّوا المستحدثات والأدوات والحركات بأسمائها، لم يجدوا بين يدَيهم ما ينطبق عليها، ويصلح أن يكون مترجمها وموفيها حقّها من الأداء والتسمية والتعبير.

وأمام هذه المشكلة العسيرة ترى الكاتبِين في مختلف فروع اللغة والعلم والأدب والاقتصاد والاجتماع "بين نارين"، كما يقولون: بين المحافظِين الذين لا تقبل بعض طوائفهم ولا لفظة واحدة جديدة، وبين المجدّدين الذين تأبى بعض طوائفهم إلّا أن تؤدّي المعنى سواء أكان موافِقًا لروح اللغة، أم كان مستهينًا بقواعدها، عابثًا بكرامتها.

ومن ذا الذي لا يوافق المعتدلين من المحافظين على مفاخرتهم بهذه اللغة العربيّة التي تُقْبِلُ علينا من أقاصي التاريخ وقد اندثرت جميع أخواتها الساميّة، من آراميّة وكنعانيّة وكلدانيّة وسريانيّة وآشوريّة وعبرانيّة قديمة وغيرها، في حين هي، على رغم ما مرّ بها من عصور الركود والجمود، ما فتئت تفيض قوّة وحياة؟

مَن ذا الذي لا يعرف للكِتَاب الكريم فضله في بقاء هذه اللغة حيّة، ومَن ذا الذي يجهل أنّ اللغة العربيّة باقية ما بقيّ الإسلام حيًّا؟

مَن ذا الذي لا يعترف بما أدّتْهُ هذه اللغة من الخِدَمِ إلى العالم، وبأنّها كانت، في حينٍ ما، الصلةَ الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارة اليوم؟

مَن ذا الذي لا يوافق المحافظِين على قولهم أنّ ليس في مقدور أمّة أن تخلق نفسها في جيلٍ واحدٍ ، وأنّ حكم البقاء يضطّرها إلى أن تربط بين ماضيها وحاضرها بعرًى غير منفصمة، وأنّ من أهمّ تلك العرى الاحتفاظ بروح اللغة، والحرص على نقاء ألفاظها ونُبْلِ صِيَغِها؟

ومَن ذا الذي لا يؤيّد كذلك المجدِّدين في قولهم: "وهل أنا جانٍ على كرامة اللغة، عابِثٌ بروحها، منكِرٌ فضلَها، جاحِدٌ تاريخَها، عندما أبحث عن أسماء للمسمّيات التي أعالجها وأصطنعها كلَّ ساعة في حياتي الفرديّة والاجتماعيّة والقوميّة؟ إنّي أركب القاطرة والباخرة والسيّارة والطيّارة والبسيكلت (الدرَّاجة)، وأستخدم التلغراف السلكيّ واللاسلكيّ، والتلفون والمكروفون والراديو، وأستفيد من كلّ ما ابتكرَ العلمُ والفنُّ والصناعةُ والتجارةُ، فأشعر بحركات جديدة تهزُّ نفسي، وأريد أن أجد أسماء لقِطَعِ الأثاث الموضوعة في بيتي، ولأجزاء الملابس التي أرتديها، ولأدوات الزينة والعمل والكتابة والدرس المنثورة على طاولتي، وكلّها من مبتكرَات الأعوام المتأخّرة– فلا أجد لها سوى الاسم الذي تُعْرَف بهِ في اللغات الإفرنجيّة. فما هو ذنبي إنْ أنا سمَّيْتُ الأشياء والحوائج بأسمائها حتّى ولو غضب لذلك الخليل وسيبويه؟ وهل أنا أكون جانيًا على روح اللغة، عابثًا بكرامتها، إذا أدخلْتُ عليها تعبيرات جديدة؟ ولماذا ترى أَجْمُدُ أنا بينما العالم حولي يتحرّك ويسير ويجري؟"

وهناك جماعة لا ترى حلًّا لهذا المشكل، وخروجًا من هذا المأزق، إلَّا في تأليف مجمع لغويّ يظهر أنّها تنتظر منه المعجزات: فهو الذي سيقوم بوضع كتاب مختصر وافٍ لقواعد اللغة يمكّن الطالب من الإلمام بها في أقصر وقت ممكن، ليتسنّى له أن يكتب في التعبير عن مقاصده، وتصريف أموره، بلغة صحيحة لا لحن فيها ولا عَوَج.

وهو الذي سينقّي اللغة ويطهّرها من الشوائب التي شابتها على ألسنة الحاكِين، ويذود عن حرمتها من هجمات المجدِّدين، فيردُّ الخطأ من ألفاظها صوابًا، والأعجميّ عربيًّا. وهو الذي سيبحث في كتب العرب القديمة، فيستخرج من بحرها الزاخر الألفاظ الرشيقة والمفردات البليغة التي تقوم بتأدية المعنى المطلوب، وتغنينا عن الألفاظ الغريبة. وإنْ لم يجدِ المجمعُ بُغْيَتَهُ في كتب العرب، فسيبتكر أسماء ومفردات وتعبيرات عن طريق النحت والاشتقاق والتعريب، ويحكم بالفناء على ألفاظ قديمة وكلمات حوشيّة عفا عليها الزمن، أو نبا عنها الذوق.

وهو الذي سيَرجع إلى طوائف العمّال، وأصحاب المهن، ورجال الصناعات، وباعة الأقمشة والأثاث والماعون، وأدوات الزينة والاستصباح، وسائر شؤون الحياة ومرافق المعيشة، فيتعرَّف مصطلحات كلّ جماعة وطائفة ومهنة، ويأخذ عنهم الكلمات والمفردات التي أَلِفُوها وتواطأوا على استعمالها، فيتناولها ويهذّب منها ما هو خليق بالصقل والتهذيب، فيضمّها إلى كلّ ما سبق فابتكرهُ واقتطعهُ واقتبسهُ وعرَّبهُ من المفردات، ويسجلهنَّ جميعًا في قاموس جديد جامع يتحتَّم تأليفهُ.

ويقوم المجمع بعدئذٍ بإنشاء موسوعة (دائرة معارف) عربيّة كبرى، تحوي كلّ ما حَوَته موسوعات الأمم الغربيّة من علوم وفنون وسياسات وتواريخ وصناعات وميكانيكات، وما إلى ذلك، ممّا لا يقع تحت حصرٍ بما يُضاف إليه من جديد كلّ يوم في شتّى الفروع والمعارف.

إنّ هذا الرأيَ رشيدٌ، وجميع ما ينطوي عليهِ من المطالب منطقيّ معقول. ولكن أين هو المجمع الذي يقتضي الجهود العظيمة، والأعوان العديدين، والأموال الوفيرة، والأعوام التي لا تُحصى؟ وماذا يصنع الكاتبون بالعربيّة. ماذا يصنع المصريّون– والعربيّة لغة دولتهم الرسميّة — ريثما يتألّف هذا المجمع المُوَقَّر ، ويقوم بجهوده الجبَّارة؟

في انتظار هذا المجمع، أيّها السادة والسيّدات، يتابع التطوُّر سيره، والحياة التي هي أقوى قوّةٍ تنبضُ فينا جميعًا وتدفعنا إلى الإفصاح عمّا يجول في نفوسنا. في انتظار هذا المجمع يتخرّج الشبّان والشابات من المدارس، ويكتب العلماء والمؤرّخون والأدباء، وينظم الشعراء، ويخطب الخطباء، ويؤلّف محمّد فريد وجدي دائرة معارف القرن العشرين، ويضع محمّد حمدي قاموسه الصغير للمصطلحات العلميّة، وينشىء الدكتور محمّد شرف معجمه الكبير الذي أَقرّتْهُ الجمعيّة الطبيّة، على ما قرأتُ في بعض الصحف– معجمًا رسميًّا لها.

في انتظار هذا المجمع تنشط حركة التجارة والصناعة، ويضع المؤلّفون كُتبًا في العلوم الماليّة والاقتصاديّة، ويجعل بنك مصر والشركات المتفرّعة منهُ اللغة العربيّة لغة معاملاتهِ الرسميّة. في انتظار هذا المجمع تعجُّ أنحاء البلاد بعوامل النهضة الوطنيّة، ويخلق الزعماءُ ورجال السياسة ألفاظًا وتعبيرات تسري بين الجماهير سريان الدم في الجسد، وتقوم الصحافة بِخِدَمٍ جليلة في الابتكار والاشتقاق والاقتباس والتعريب، فتحذف شيئًا فشيئًا المهلهلات والكنايات والاستعارات والجِناس والبديع، لتأخذ بالكلمة المُحْكَمة المطلوبة في تأدية المعنى.

وفي نجاح هذه النهضة اللغويّة المتنوّعة العامّة دليل على حيويّة اللغة العربيّة. فهي شأن كلّ كائن حيّ من الناحية الواحدة، تنمو وتتجدَّد بما تضمّ إليها من المعاني والمفردات، ومن الناحية الأخرى تخلص من الزوائد الإضافيّة باندثار الألفاظ الحوشيّة، والكلمات التي لا حاجة بنا إليها في حياتنا الراهنة.

فحال لغتنا الآن حال موقفنا السياسيّ والقوميّ والعلميّ والاجتماعيّ. دلائلُ التقدُّم باديةٌ فيها تبشِّر باستطراد السير إلى الأمام في سبيل استيفاء ما يُعْوِزُها من الألفاظ والمعاني والأسماء المستجدَّة، ونحن منها محافظون مجدِّدون في آن واحد.

بيد أنّ هناك صعوبةً نصطدم بها، وهي التضاعُف بين لغة الكتابة ولغة الكلام، أي بين اللغة الفصحى واللغة العاميّة. لكنّ هذه الصعوبة– وإنْ كانت في العربيّة أظهر– موجودة عند جميع الشعوب. ففي قوميّة واحدة ذات لغة رسميّة جامعة، ترى لكلِّ إقليمٍ لهجَتَهُ العاميّة المختلفة عن لهجات سائر الأقاليم. ويخلِّد هذه اللهجات الكتّاب والشعراء "الإقليميّون" الأوفياء "لوطنهم الصغير" دون أن يكون في مجهودهم ما يهدِّد كيان الوطن الأكبر، ويحارب انتشار اللغة القوميّة.

من مشاهير الكتَّاب الإقليميّين في فرنسا "ميسترال" واضع رواية "ميراي Mireille" التي عُرِضَت في إحدى دور السنما في القاهرة منذ عامين تقريبًا. وقد نشأت شهرة ميسترال ممّا ألّفه بلهجة إقليمه:"البروفنسالية".

وفي هذا العام الثلاثين من القرن العشرين تحتفي الشعوب اللاتينيّة بمرور مائة عام على مولد هذا الشاعر الكبير.

ويَعرف الذين قرأوا كتابات "سِر ولتر سكوت" تلك الجُمل والكلمات المُغلَقة التي تتخلَّل رواياتهِ لأنّها لم تُكتَب بالإنكليزيّة بل بلهجته الإسكتلنديّة. ومثله الشاعر "برنز Burns" الذي كتب بعض قصائده باللهجة الإسكتلنديّة، و"توماس مورMoore" الذي كتب بعض قصائده باللهجة الإيرلنديّة ولم يُهمِلْ، لا هذا ولا ذاك، اللغة الإنكليزيّة القوميّة. ونجد مثل هؤلاء عند جميع الشعوب.

وإنْ جاز لي أن ألفتكم إلى هذا الأمر قُلْتُ: إنّ أدباء مصر لم يقوموا بواجب الوفاء نحو لهجاتهم الإقليميّة، على ما فيها من طلاوةٍ وبساطةٍ و"نغاشة". فإنّ لكلّ إقليم بيانهُ الخاصّ المعبِّر عن روحهِ واعتقاداتهِ وأوهامهِ وآلامهِ ومطامحهِ في قصّةٍ أو أسطورة أو حكاية أو

أغنية. والأدب الشعبيّ الإقليميّ مؤثِّرٌ حنونٌ بعيدُ الغور، يحدّث عن خُلُقِ الشعب وعاداتهِ. فمن الخطإ ألّا تُسَجَّل جميع هذه المستندات في كتب الأدب قبل أن تنهزم أو تتحوَّر بفعل تقدُّم الحضارة. إنّنا نُعنى بالحجارة القديمة وبقايا الآثار والأخربة الداثرة، وحسنًا نصنع. فما أحرانا بتدوين هذه الإنسانيّة الزاخرة بمعاني الأفراح والأتراح، والبهجة والألم، واليأس والحماسة، على تقادم الدهور! ولقد شعر بعضهم بصعوبة التضاعُف بين اللغة العاميّة واللغة الفصحى، فقام يدعو إلى "تمصير" اللغة العربيّة.

أيّها السادة والسيّدات

إنّنا، برغم ما يصدمنا من صعوبة التجديد وصعوبة التضاعُف، نشعر في إخلاص بأنّنا نستطيع أن نعالج اللغتين في آن واحد. إنّ جميعَ الشعوب طامعةٌ في نشر لغاتها، أَفَنَسعى نحن إلى الأمر المعكوس؟ إنَّ حظَّ اللغة العربيّة فريدٌ بين حظوظ اللغات، ولئن امتازت الإنجليزيّة بأنّ لها آدابًا هي الإنجليزيّة المحضة، والإسكتلنديّة والإيرلنديّة والأمريكيّة الجديدة، فلكم أَن تقدّروا مبلغ امتياز اللغة العربيّة بآداب الأقطار التي تتكلَّمها فيما لو تكوَّنت تلك الآداب، وأصبحت ذات طابع خاصّ في كلّ قطر.

وعلى كلٍّ، فاللغة الفصحى يجب أن تبقى دائمًا الحصن المنيع الذي نحتمي فيه جميعًا، والرابطة النفسيّة الغالية التي تجمع بين أهل الأقطار المتباعدة، والصيغة الجميلة الحيّة التي نُوْدِعُها مكنونات العقول والقلوب، جيلًا بعد جيل حتّى انتهاء الدهور.

ليست اللغةُ أداةَ تعبيرٍ وكفى، كما يزعمون. بل هي فكر وعاطفة، وعلم وشوق، ومطمح وفنّ، وألم وأمل. هي صورة لكلّ شخصيّة، كما هي صورة لكلّ زمن. هي مُلك الجميع، وهي مُلك كلّ فردٍ ورثَها فورثَ معها الحقّ في استعمالها للتعبير عن حياته الخاصّة. وإذ يتصرَّف الفرد بحقِّه هذا يكون في نفس الوقت قائمًا بواجبه نحو ماضي اللغة، ومهيِّئًا لها مستقبَلًا لا يكون محض صدى وتقليد وترجيع، بل يكون صوت حياةٍ وإبداع وتوقيع.

لقد أَعطينا الفرنجةَ من لغتنا فأخذوا الشيء الكثير، ولم يخجلوا ممّا أخذوا. بل سجّلوه في كتبهم ومعاجمهم وعلومهم، ولم يستبدلوه بغيره، رغم تقدُّم حضارتهم. فَعَلامَ نحن نتكبَّر ونأبى– ونحن مثلهم جزء من الإنسانيّة الذكيّة المتعاونة في السلم والحرب، في الحبّ والشحناء، على تأييد وجودها وعلى إثبات تفهُّمها– أنّ التعاون في التبادل والتفاعل هو أصلٌ لسنَّة التطوُّر، ووسيلة لاستطراد الحياة؟

اللغة بيد الجميع من علماء وأدباء وعمّال وموظّفين وصحافيّين. اللغة بيد وزارة المعارف التي تستطيع أن تقدّم للطلبة مُثُلًا جميلة بليغة في التفكير والبيان. اللغة بيد المرأة التي تدور معها أعذب أحاديث العمر: أحاديث الأُنس والسمر والحنان. اللغة بيد الشبّان الذين تتدافع في نفوسهم عوامل الأمل والقوّة والحماسة. فليُفصحوا عمّا في نفوسهم بلغة صادقة مهذَّبة أمينة، يكونوا فاتحين فتحًا جديدًا، ومهيِّئين للأجيال المقبلة ثروة جديدة. [...].

مَيّ زيادة،

نقلًا عن **نصوص خارج المجموعة، مَيّ زيادة**، إعداد أنطوان القوّال، الطبعة الأولى، بيروت، دار أمواج للطباعة والنشر، ١٩٩٣، ص ١٦٥– ١٧٤.

###

الرَّيحاني وفضل المشرق[1]

(قَدمَ القاهرة الكاتب البليغ أمين أفندي الرَّيحاني نزيل أميركه فأقام له أدباء مصر وسَراتها حفلات تكريم كثيرة، ومنها حفلة أقامها حضرة الوجيه الياس بك زيادة صاحب "المحروسة" في منزله. ولمّا انتظم عقد المدعوّين إليها وقفت كريمته الآنسة النابغة ماري (مَيّ) وألقت الخطبة التالية):

أيّها السادة

من جميل العادات أنّ القوم إذا نزل عليهم عزيز جاؤوا بأصغرهم سنًّا وشأنًا يُهدي إلى الضيف الأزهار، ويُلقي بين يدَيهِ كلمات الترحيب. كأنّهم بذلك يقولون للزائر إنّنا نقدّر قدومك تقديرًا يعجز دون وصفهِ الكبير فينا. وإنّما نقدّم لك الطفل اعترافًا بهذا العجز، ودلالة على أنّ الكبيرَ عندنا والصغيرَ سواء في الشعور بالاغتباط والامتنان.

وعلى هذه العادة جرى أبواي، فقدّماني أنا، أصغر أعضاء البيت، لأشكر لكم تشريفنا بحضوركم، ولأرحِّبَ بكم بالكلمة العربيّة البسيطة التي لا يزيدها الاستعمال إلّا عذوبة وجمالًا: "أهلًا وسهلًا". لقد جئتم أهلًا، وأرجوكم أن تتناسَوا طول السلّم ليتسنّى لي أن أضيف: وطئتم سهلًا.

ولكنْ لا بأس بالصعوبة أحيانًا، وأكاد أقول إنّ قيمة الأعمال تُقَدَّر بالتغلّب على المصاعب. ولا بأس بشيءٍ من التعب للاحتفاء بمَن هو بالاحتفاء حقيق. ليس غرضي هنا التنويه بأمين أفنديّ، والإشادة بذكره، وهو أمرٌ ما فتئَ يقوم بهِ رجالنا الأفاضل، من مصريّين وسوريّين، منذ أن حلّ مُترجِم المعرّيّ بوادي النيل. غير أنّي ما ذكرتُ الرَّيحاني إلّا ذكرت أنّه كان جليسي يوم كنت أتلقّن اللغة العربيّة على نفسي، أتلقّنها على حبّي لهذه اللغة التي أُباهي بأنّي لم أدرسها على أستاذ. كان جليسي في **الرَّيحانيّات**— ولقد كانت **الرَّيحانيّات** من الكتب الخمسة أو الستّة التي عرَّفتني باتّجاه الفكر العربيّ الحديث في صيغتَي الشعر والنثر.

استهلَّ الجزء الأوّل من **الرَّيحانيّات** بمقال وصف فيه مسقط رأسه وادي الفُرَيْكة— ذلك الوادي الذي أَحبَّهُ وتغنّى بمحاسنهِ راسمًا منهُ الصخور والأشجار، والمرتفعات والمنحدرات، والألوان والأصوات، مُصوِّرًا ما أحاط بهِ من الجبال المتعانِقة عناقًا أبديًّا تحت رعاية الأفق المخيّم عليها، مستحضِرًا منه المياه المتدفّقة، والرياح العاصفة، والشمس المشرقة، والكوكب المتلألئ. يا لَجمال روح الرَّيحاني في مقال "وادي الفُرَيْكة"!

قال "رسكن" إنّ جمال المشاهد الطبيعيّة كثيرًا ما يقوم بما مرَّ عليها أو وقع فيها من حوادث تاريخيّة أو فرديّة. كذلك تشبَّعت عندي جميع صفحات الكتاب بحياةٍ من وادي الفُرَيْكة. وصرتُ كلّما قرأت فصلًا خلتهُ مكتوبًا في ذلك الكهف، أو تحت تلك الشجرة، أو عند ذلك الغدير. وأرى الرَّيحاني سائرًا في معاطف الوادي، تحت سيول الأمطار، هائمًا بالطبيعة في انفعالها وغضبها، طَرِبًا لتساقط

[1] المقتطف، ج ٦٠ (١٩٩٢)، ص ٢٥٢.

الأوراق، متسائلًا عمَّن فتح تلك الطريق الصغيرة بين الأشواك والأدغال، ومُطلِقًا عليهِ اسم "بطل الوادي". ثمّ يقف متفّهمًا معنى السكينة بعد العاصفة، متنشّقًا بنسمة واحدة خليط أنفاس الوادي. صرتُ أحسب وادي الفُرَيكة هيكلًا يأوي إليهِ الرَّيحاني ليتأمّل ويبحث ويفكّر– والتفكير صلاة الفيلسوف على رأيهِ– حتّى إذا ما كشَّر المجتمع عن أنيابه ليؤلمهُ وينسيهُ لحظة الجمال والحقيقة والصلاح، حتّى إذا ما أوجعتهُ الصغائر وأمَضَّتْهُ الجراح، سأل الوادي تعزيةً، ودَوْزَنَ قيثارَتَهُ مناديًا ربّة ذلك الهيكل الطبيعيّ قائلًا: "داويني ربّة الوادي داويني! اغسلي جراحي وضمّدي كُلُومي! أعيدي إليّ ما سلبَتْني الآلام من مجد الحياة الشعريّة، وأَزيلي عن أجفاني كآبة الأجيال! داويني ربة الوادي داويني! ربّة الإنشاد أَصْلِحيني!"

كان ذلك في أواخر صيف ١٩١١، وكنّا مصطافين في لبنان، فأفضيْتُ إلى أديبٍ هناك بأثر الرَّيحانيّات في نفسي، وكيف أنّ ذلك الوادي غدا لي شيئًا حيًّا يتحرّك ويُناجي، ويَندب ويُهَلّل، ويزمجر ويهيمن، ويُحيِّي ويُودِّع. فقال الأديب: إذن لماذا لا تزورين الوادي وهو على مقربة من هذا المكان، وأمين الرَّيحاني وصل حديثًا من أمريكا، ويقطن منزلهُ المشرف على الوادي، وقد دعاهُ "بالصومعة". وكان ذلك الأديب من أصدقاء شاعرنا فكتب إليهِ. وكان الجواب أنْ بعد ظهر الغد زارنا أمين الصومعة مع شقيقتَيهِ الفاضلتين، وبعض انسبائه وأصحابهِ. فرأيت بالجسم للمرّة الأولى ريحاني الوادي، هذا الذي تبصرون.

ومضيت إلى الفُرَيكة بعد يومين أو ثلاثة مع والدي وبعض الأدباء، فرأينا هناك المكتب الذي يكتب عليهِ، والنافذة االمُطِلَّة على البحر البعيد، وقد خيَّمتْ فوقهُ روعة الغروب، ورأينا والدتَهُ الجليلة. تعلمون أيّها السادة أنّ أمين أفندي واسع حرّ في مسألة الدين، أي أنّهُ يوحِّد جميع الأديان في أخوَّة رفيعة سامية. أمّا والدتهُ فصائمة مصلّية زاهدة متعبِّدة، تُكثِر من قرع الصدر، وتُكثِر التردُّد على الكنائس، ولعلّها تبتهل إلى الله دوامًا أنّ يردَّ ولدها الضالّ إلى حظيرة التوبة.

وزرْتُ جانبًا من الوادي، متلمِّسةً خطوط الصخور والأشجار، متلمِّسة هيمنة النسائم وهدير النهر المهرول إلى حضن البحر. زرْتُ جانباً من الوادي، وعندئذٍ فهمْت عظمة التفوُّق الفرديّ الذي يُنيل الجماد حياة، ويجعل المكان المجهولَ محجَّة للزائرين. عندئذٍ فهمْت عظمة التفوُّق الفرديّ الذي قد يثير من الكُره والتطاول والعداء بقدر ما يثير من الإعجاب والصداقة والإخلاص، ولكنّهُ يهزّ الأفراد والجماعات هزًّا، ويُحدِثُ فيهم يقظة محتومة. عندئذٍ فهمْت عظمة التفوُّق الفرديّ المتجلّي وحدَهُ فريدًا بأساليب سعادتهِ وشقائهِ، فوق فروق المراتب وروابط الحَسَب، فتنحني أمامهُ جباه المكابرين والمسالمين.

ومرَّت عشرة أعوام والرَّيحاني يشتغل في الغرب بعيدًا عن بلاده. وكلّما نشر كتابًا أو مقالًا ذكرَ أصدقاءَهُ في الشرق، فبعثَ إليهم بنفثاته. وكنْتُ كلّما قرأتُ منها شيئًا، عاودتني تلك الذكرى الأولى التي بسطْتُها الآن أمامَكم.

فيا ريحاني الوادي، إنْ نحن احتفينا بقدومك مرحّبين، كلّ منّا بأسلوبه الخاصّ، فإنّما نحتفي بنفسنا الشرقيّة، وبما يتحرّك فيها من وراثة سحيقة، ويهيجها من ذكريات العزّ الماضي، وآمال التقدّم المنشود. بالأمس قطعَتْ فينيقيا البراري، وخاضَتِ البحار مُشَيِّدة على الشواطئ القصيّة المدائن والعواصم. بالأمس كانت مصر مُعلِّمة العالم، تُلقي عليهِ دروس الشريعة والإدارة والهندسة والفلسفة الروحانيّة الخالدة. بالأمس فتح سيفُ الإسلام القارات الثلاث ناشرًا فيها حضارة أَوْجَدَها القرآن. وكان الشرق، أنَّ ذهب، يرفع الجبهة ويناجي الشعوب قائلًا: ها أنذا. جئتكم بمواهبي أستخدمها بنُبْلٍ لمصلحة بني جنسي، ومصلحة بني الإنسان.

وممّا نفاخر به اليومَ، ويبعث الأمل فينا، أنّ منّا أفرادًا يقفون في بلاد المشرق والمغرب عالِيي الجبهة، لا يكذِّبون وراثتهم الشرقيّة، ويتغلَّبون على أنانيّة الجماهير الحيويّة، قائلين ما قالتهُ بالأمس فينيقيا ومصر والعرب: ها أنذا. جئتكم بمواهبي أستخدمها بنُبْلٍ لمصلحة بني قومي، ومصلحة بني الإنسان.

مَيّ زيادة،

نقلًا عن **نصوص خارج المجموعة، مَيّ زيادة**، إعداد أنطوان القوّال، الطبعة الأولى، بيروت، دار أمواج للطباعة والنشر، ١٩٩٣، ص ١٥٧– ١٦١.

###